المجتمع الإسلامى فى العصرين المملوكى والتركى

من المعروف لدى الدارسين المتخصصين أن كل عصر يقاس بمدى مواجهته للتحديات التى تفرض عليه من خارجه أو داخله، ووفقًا لنوع هذه التحديات يتحدد المسار التاريخى والعطاء؛ اللذان يكيِّفان المجتمع تكييفًا خاصًا . . .

وفى ضوء هذه الحقيقة فإننا لا نتوقع أن يكون المجتمع الإسلامى فى العصرين المملوكى والتركى شبيهًا بالعصرين الأموى والعباسى كل الشبه؛ بل لا بد - مع وجود الأرضية العقدية والحضارية المشتركة - من وجود خلاف ، ينطلق من عصر جديد له ظروفه وتحدياته الجديدة . .

لقد كان المجتمع الإسلامى فى عصر الأمويين والعباسيين يعيش ظروف تفوق حضارى، وثقة مطلقة فى الذات المسلمة، وتفاعلاً فكريًا وحضاريًا؛ ينطلق من الداخل مع العالم كله، ويسعى - وقد نجح فعلاً فى سعيه - إلى أن يكون الحضارة الأعلى والكبرى فى العالم كله لعدة قرون، بصرف النظر عن وجود أزمات أو مشكلات .

أما فى العصرين المملوكى والتركى فقد كان الغرب قد اتخذ زمام المبادرة بعد سبعة قرون من الانحدار، وهو إذا كان معطلاً عقديًا وحضاريًا، ولا يملك ما يصدره للعالم الإسلامى فى هذا المستوى، فقد عمد إلى الغزو العسكرى الجماعى؛ الذى يشبه أن يكون غزو البرابرة الهمج - فى لحظات شعور الموت - للعالم المتحضر الأرقى فكرًا وحضارة!!

ولو تعمقنا فى الحالة الحضارية؛ التى كانت عليها جيوش الصليبيين، التى قاتلت المسلمين من (مماليك أو أتراك)؛ فسوف نجدها - فى الفكر والثقافة والعلوم والأخلاق - أقل بقرون كثيرة من المستوى الإسلامى العام !!

وقد فرض هذا التحدى العسكرى الصليبى - والوثنى أحيانًا على يد التتار - على المماليك والأتراك أن يهتموا بالجوانب العسكرية، على حساب الجوانب الحضارية الأخرى، وما كان بإمكانهم أن يرفضوا المواجهة، ويتخلوا عن هذه الوظيفة التى فرضت عليهم.

وقد أتاح هذا التحدى العسكرى لخصومهم أن يتهموهم بالخمول الحضارى، وهو اتهام غير صحيح، فضلاً على أنه لم يكن باستطاعتهم تجاهل التحدى الخارجى كما ذكرنا، ومع ذلك فإن ثمة إسهامات حضارية كبيرة قام بها هؤلاء وأولئك فى خدمة الشريعة الإسلامية.

إن القاهرة - مثلاً - فى العصر المملوكى (٦٥٦ - ٨٥٧هـ) يقول عنها ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)؛ الذى زارها، وعاش فيها آخر أيامه:

(إنها جنة الدنيا، مكتظة بجميع أجناس البشر، مدينة ازدانت بالقصور والدور الفخمة، مضيئة بنجوم العلم والمعرفة)، وفى تعليقه على كلام ابن خلدون يضرب (ول ديورانت) المثل بقايتباى بأنه: «أعظم البناة بين المماليك البرجية»، وبالرغم من أن الحرب أنهكته؛ فقد دبر الأموال لتشييد المبانى النفيسة الكثيرة فى مكة والمدينة والقدس، وجدد فى القاهرة قلعة صلاح الدين والأزهر، وشيد نزلاً، وبنى داخل العاصمة مسجداً [1].

إن ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/ ١٥٧٧م) - مع ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، وابن الخطيب(٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) - من هؤلاء الذين نجد عندهم وصفًا للحياة الاجتماعية فى هذين العصرين المملوكى والتركى... وعندما نتتبَّع وصف هؤلاء وغيرهم؛ فسوف نجد الشريعة الإسلامية هى المهيمنة على روح المجتمع

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢٦/ ٥٢، ٥٣، ٥٤.

وسلوكياته، مع وجود أخطاء بشرية، ولا سيما فى مستوى العسكر والسياسة !! و«ديورانت» - وهو يحلل لنا هذين العصرين - نجده أكثر دقة وإنصافًا من أكثر المؤرخين المسلمين . . . فقد زار ابن بطوطة أكبر الحكام المسلمين فى عصره، والتقى بالعلماء أيضًا، وحين عدد أعظم الملوك فى عصره حصرهم فى سبعة ملوك، ذلك أن منهم ستة من المسلمين، وواحدًا صينيًا[1]، وأما العلماء فى هذا العصر فقد كانوا كثيرين؛ مثل الشعراء، وكانوا يكتبون باللغة العربية، كما جمعوا فى كثير من الأحوال بين الدرس والتأليف، وبين النشاط السياسى والإدارى[2]؛ وكان أعظم الكتاب إنتاجًا فى التاريخ الطبيعى من المسلمين خلال القرنين السابع والثامن الهجرى، وإن الكتاب العظيم (حياة الحيوان) الذى ألفه محمد الدميرى (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) لمن أقوى الشواهد على هذه الحقيقة، كما كانت المستشفيات كثيرة فى العالم الإسلامى[3].

وقد كانت الشريعة الإسلامية هى المصدر الوحيد للتشريع والقضاء، وكان الفقهاء هم القائمون على حراستها والاستنباط منها، ويفسر لنا الأستاذ/ حنفى محمود خطاب ما كان لعلماء الدين من سطوة ونفوذ فى الدولة المملوكية بصفة عامة فيقول: «إن الدين كان منبع القانون بين الناس، وكان سلاطين المماليك لا يعرفون أحكام الشريعة، أو وسائل تطبيق تلك الأحكام؛ لأنهم عاشوا عيشة عسكرية منذ نشأتهم، ولم يعرفوا من شؤون الدين سوى ما تلقنوه من مبادئه الأولى فى شبابهم الأول بثكنات القلعة وطباقها، وكان من الطبيعى أن يترك المماليك لعلماء الدين تلك الناحية من شؤون الدولة»[4]. وقد برز من علماء الإسلام فى هذا العصر كثيرون على رأسهم شيخ الإسلام/ عز الدين بن عبد السلام (٦٦٠هـ)، وتقى الدين عبد الوهاب بن نبت الأعز (قاضى قضاة الشافعية ٦٥٤هـ)، وصاحب مواقف مشهورة، وشيخ الإسلام الإمام/ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، وهو أشهر من أن نقف عنده !!

---

(١) المرجع السابق ٢٥/ ٧٤، ٧٥.
(٢) المكان السابق.
(٣) المكان السابق.
(٤) حنفى خطاب: الحركات الداخلية فى الدولة المملوكية الأولى، رسالة ماجستير (١٩٤٣م) جامعة القاهرة، ص: ١٢١.

وكانت مكانة علماء الإسلام بارزة على المستويين الشعبى والرسمى، فلم تكن تتم بيعة الخليفة أو السلطان إلا بحضورهم.

وقد وقف العلماء وقفات مشرفة وجريئة ضد السلاطين، ورفضوا الإفتاء على هواهم ورغباتهم، كما فعلوا مع السلطان الظاهر برقوق؛ عندما شكا لهم بأن الخزائن خالية من الأموال، والعدو (المغول) زاحف على البلاد، وأنه يريد أخذ نفقة العسكر من مال الأوقاف المرصدة للجوامع والمدارس، فلم يوافقوا على ذلك؛ بل أكثر من ذلك أغلظوا على السلطان القول؛ لكن لما طال الأمر اتفقوا مع السلطان بأن يؤخذ من مال الأوقاف وخراج الأراضى سنة كاملة فقط وتبقى الأوقاف على حالها، وهذا يعتبر انتصاراً شبه كامل لاحتجاج علماء الدين، كما كان لعلماء الدين دور كبير فى الأزمات وعند وقوع البلاد[1].

وقد حظى علماء الدين بمكانة كبيرة فى عهد السلطان المملوكى الظاهر برقوق (٧٨٤ـ٧٩١هـ)، فقد كان يوقرهم ويحبهم، ويقوم للفقهاء إذا دخلوا عليه . . . وحتى هؤلاء الذين أخطأ فى حقهم؛ مثل الشيخ/ شهاب الدين الشافعى . . . الذى ما إن وصل إلى علمه أنه كثير الورع والزهد؛ حتى أرسل خلفه واعتذر إليه، ومن ثم أعاده إلى بلده مكرمًا[2].

وفى عهد السلطان المملوكى المؤيد شيخ (٨١٥ـ٨٢٤هـ) ارتفعت مكانة العلماء؛ نظراً لأن السلطان نفسه كان متديناً، وكان يحب الدين، وينقاد للشرع فى جميع أموره وأحواله، يدلنا على ذلك أن السلطان نفسه كان يخرج وقت الأزمات واشتداد البلاء، وهو لابس جبة صوف بيضاء، وعلى رأسه عمامة صغيرة متجرداً من جميع ملابسه السلطانية الفاخرة، يخرج وبصحبته الخليفة والقضاة وسائر علماء الدين، ثم يصلى من غير سجادة، ويمرغ وجهه فى التراب ويبكى تضرعًا لله تعالى[3].

---

(١) شريفة المنديل: الحركات الداخلية فى الدولة المملوكية الثانية ـ رسالة ماجستير ـ كلية الآداب للبنات فى الرياض (١٤٠٩هـ)، ص: ١١٧.

(٢) المرجع السابق، ص: ١٢٠.

(٣) ابن إياس محمد بن أحمد: بدائع الزهور فى وقائع الدهور ٢/٤٦، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٤٠٣هـ).

وقد كان للعلماء كلمة مسموعة وأمر نافذ لدى السلطان عند استشارته لهم فى أى أمر، فعندما اجتمع السلطان بهم عام (٨٢١هـ/ ١٤١٨م) واستشارهم فى أمر قتال يوسف، أفتوا بجواز قتاله؛ نتيجة لسوء أفعاله وسوء سيرته، فما كان من السلطان إلا أن أسرع فى تجهيز العسكر تنفيذاً لذلك [١]، وعندما رفض القاضى جلال الدين البلقينى أن ينفذ ما أراده السلطان من الخطيب عند ذكر اسمه بالدعاء فى الخطبة أن يهبط درجة؛ حتى يكون ذكر اسم الله تعالى ورسوله فى مكان أعلى من المكان الذى ذكر فيه اسمه، لم يعارضه فى ذلك، على الرغم من أن قصد السلطان من ذلك هو التواضع والخضوع لله تعالى ورسوله الكريم، كما أن بعض الجوامع قد فعلت ذلك مثل جامع الأزهر، وجامع ابن طولون [٢]، مما يدل على مدى قوة كلمة علماء الدين ونفاذها حتى على السلاطين أنفسهم، وتوجيههم إياهم إذا أخطئوا فى الاجتهاد.

كان السلطان الأشرف برسباى (٨٢٥ـ٨٤١هـ) منقاداً للشرع يحب الفقهاء ويقربهم . . . وكانت له ثقة فى القاضى عبد الله بن عبد الباسط، فكان منقاداً له كما ينقاد الطفل إلى أبيه . . . وله كلمة مسموعة لديه، يدلنا على ذلك أنه عندما تضرر الناس بسبب أمر السلطان بعدم زراعة قصب السكر إلا للسلطان فقط، تكلم معه القاضى عبد الله بن عبد الباسط فى ذلك فعندئذ أذن للناس فى زراعته [٣].

وكان لعلماء الدين دورهم فى توجيه السلطان إذا أخطأ فى الاجتهاد، فمن ذلك أنه وقع الطاعون فى الديار المصرية، والذى سمى فيما بعد (بالفصل الكبير)؛ لأنه انتشر فى جميع نواحى بلاد العالم، فلما رأى السلطان ذلك اجتمع بالخليفة والقضاة الأربعة ومشايخ العلم، واستفتاهم فى ذلك، وقال: أخرج أنا والناس إلى الصحراء ونستسقى هناك، فعارضه أحد علماء الدين فى ذلك،

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٩ـ٤٠، وانظر: شريفة المنديل: مرجع سابق، ص: ١٢٥.

(٢) المرجعين السابقين.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ص: ١٢٦.

وقال له : إن ذلك ليس من فعل السلف ، وإنما ذلك من سوء أفعال الناس وفتنهم ؛ حيث يبعثه الله تعالى عقوبة لهم على ذلك [١] .

وقالوا للسلطان : إنه لا بد من أن يمنع المظالم التى كثرت فى البلاد ، ويبطل المكوس ، ويمنع خروج النساء وهن متزينات إلى الأسواق ، كما يأمر الناس بكثرة الدعاء والاستغفار ، وانفض المجلس على ذلك ، وعمل السلطان بكل ما قرره معهم .

وقد كان السلطان يستشيرهم فى كثير من أموره التى يعجز أن يجد حلاً فيها ؛ حيث يجد عندهم الحل الكافى والجواب الشافى ، كما فعل عند استشارتهم فى أمر زكاة الأموال الظاهرة والباطنة للناس .

وكان السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ـ٨٥٧هـ) يكثر من فعل الخير والبر ، شديد التدين ، وقد استبشر أكثر الصالحين بسلطنته . . . ولقى فى عهده علماء الدين كل حظوة وتقدير واهتمام ، وكان يسعى لتطييب خاطرهم ، ويرضيهم بشتى الوسائل ؛ فمن ذلك ما وقع بين قاضى القضاة سعد بن الدسيرى ، وبين قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر من تشاجر ، وما أدى إليه ذلك التشاجر من عزل القاضى ابن حجر نفسه عن القضاء ، فسعى السلطان إلى تطييب خاطره ، فأعاده إلى منصب القضاء ، وخلع عليه وأكرمه .

وكان يهتم بالعلم والعلماء ، ويحضر الحفلات التى يقومون بها من أجل ذلك ، ومن ذلك حضوره لحفلة قام بها شهاب الدين بن حجر ؛ بسبب انتهائه من تأليف كتاب (فتح البارى فى شرح البخارى)[٢] .

وقد كان أكثر السلاطين المماليك يخضعون لشروط بعض القضاة ، مما يدل على مدى المكانة الكبيرة التى وصلوا إليها ، لدرجة أنهم وصلوا إلى الاشتراط على السلاطين [٣] ، وفى عهد السلطان قانصوه الغورى (ت ٩٢٢هـ) عارض علماء الدين رغبة السلطان فى أخذ أموال الأوقاف والنفقة بها على الأمراء والمماليك .

---

(١) المقريزى : السلوك ٤/ ٢ ، ص : ١٠٢١ ، نقلاً عن شريفة المنديل : مرجع سابق ، ص : ١٢٧ .
(٢) ابن إياس المصدر السابق ٢/ ٢٠٧ ، وشريفة المنديل ، ص : ١٣٠ .
(٣) شريفة المنديل : مرجع سابق ، ص : ١٣١ .

وفى عهد السلطان الغورى - أيضا - حدثت كائنة عجيبة لعلماء الدين عامة والقضاة بشكل خاص؛ وهى أنهم عُزلوا جميعًا بسبب معارضتهم لرأى السلطان فى مسألة شرعية، فغضب السلطان منهم، وعزلهم جميعًا فى وقت واحد، حتى إن مصر بقيت حوالى خمسة عشر يومًا لم يعقد فيها نكاح، ولا وقع فيها أى حكم من أحكام الشريعة [1].

وتدلنا تلك الحادثة على مدى جرأة علماء الدين، وعلى مدى قوتهم فى مواجهة الظلم والخطأ؛ حتى ولو كان ذلك سببًا لعزلهم وإقصائهم عن وظائفهم.

ولم ينقص ذلك كله من مدى عزمهم وقوتهم؛ بل على العكس زاد من قوتهم ومقدرتهم، وزادت قيمتهم عند الناس والأمراء، فقد كان لهم الدور الكبير والفعال فى تولى السلطان طومان باى، فعندما قتل السلطان الغورى عام (٩٢٣هـ/ ١٥١٦م) وقع اختيار الأمراء على سلطنته فامتنع من ذلك غاية الامتناع، ولكن الأمراء ألحوا عليه وأجبروه بحجة أنه ليس هناك سلطان غيره، فوافقهم، وخاصة بعد أن ضغط عليه الشيخ/ أبو السعود الجارحى، والذى أتى بالمصحف الشريف وحلف الأمراء عليه، على أنه إذا تسلطن الأمير طومان باى لا يغدرونه، ولا يخامرون عليه، ولا يطالبونه بنفقته، وينتهون عن مظالم المسلمين، فحلفوا على ذلك، وانتهى الأمر على سلطنة طومان باى على ذلك[2].

وقد بقى الأمر بين طومان باى والعلماء على ذلك؛ لكن عهد طومان باى لم يستمر إلا سنة واحدة، فقد استولى العثمانيون على مصر سنة (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م)، وحملوا الراية . . .

لكن العلماء - على أية حال وكما تدلنا الوقائع السابقة - كان لهم وجودهم الشرعى، وقد أدوا واجبهم فى صياغة المجتمع صياغة إسلامية.

---

(١) المرجع السابق، ص: ١٣٨، ١٣٩.
(٢) المكان السابق.

وقد كان العثمانيون - فى أصلهم - قبائل تركية فرَّت من بلاد آسيا الوسطى أمام الزحف المغولى، وقد أسلم جدهم (عثمان بن طغرل)، واستوطن وأتباعه بلاد الأناضول، ومن ثم نجح فى تشكيل دولة تنسب إليه، فاتخذ مدينة (قره حصار) قاعدة له، واستقل بعد مداهمة المغول للسلاجقة، وأصبح ملاذًا لكثير من المسلمين الذين يفرون من وجه التتار، وخاصة أنه أول من اعتنق الإسلام من أمراء قومه؛ ولهذا انتسب إليه الخلفاء من بعده؛ دلالة على ارتباطهم بالإسلام وليس بالعصبية، وتوفى فى سنة (٧٢٧هـ)، وكان خلفاؤه من بعده قد أخذوا على عاتقهم جهاد البيزنطيين، وتقدم العثمانيون فى أوروبا وفتحوا مناطق واسعة، وأخيرًا تمكن محمد الثانى من فتح مدينة القسطنطينية عام (٨٥٧هـ)، وغدا اسمها (إسلام بول)، ويطلق عليها (إستانبول) [١].

ولم يكن انتصار الغازى محمد الثانى فى القسطنطينية هو أول نصر كبير يحرزه آل عثمان؛ ولكن (الرمز) أو القيمة المعنوية لهذا الانتصار قد طغت على كل ما عداها من القيم.

لقد أحرز الفاتح أول انتصاراته وأضخمها على ضفاف البسفور، وهو ابن اثنين وعشرين عامًا (٨٥٧هـ - ١٤٥٣م)، فلم يداخله الغرور لما أحرزه، ولم يأخذه العجب بما أنجزه وحققه، فمضى للصلاة فى مسجد (أياصوفيا) شاكرًا لله على ما منحه من النعمة، وأطلق على المدينة المحررة فورًا اسم مدينة الإسلام (إسلام بول)، وأسرع إلى موضع استشهاد الصحابى (أبى أيوب الأنصارى)؛ الذى استشهد فى حصار القسطنطينية أيام معاوية بن أبى سفيان (سنة ٥٢هـ)، فأقام بجواره مسجدًا مبرهنًا على أن الفتح العظيم لم يكن إلا امتدادًا لجهاد العرب المسلمين [٢]، من أجل رفع راية الإسلام والمسلمين.

---

(١) إسماعيل ياغى، ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر ١/ ١٥١، ١٥٢، ط دار المريخ - الرياض (١٤٠٤هـ).

(٢) من المعروف شرعًا أن بناء المساجد على القبور مخالف للهدى النبوى، ويجب الإقلاع عنه.

وعرف الفاتح أن هذا النصر لا بد وأن يستثير حقد الحاقدين من الفرنج والصليبيين، فمضى مجاهداً فى سبيل الله، محتسبًا الأجر والثواب على الله، فأتعب الدنيا وأتعبته حتى خرج من الدنيا مخلفًا للمسلمين فخر الدنيا وعزة الإسلام [1].

وقد اتجه حفيد محمد الفاتح السلطان سليم إلى دخول الأقاليم العربية، والوقوف فى وجه البرتغاليين الذين أرادوا حربًا صليبية واضحة، وتعدوا من جهة الجنوب، فدخلوا عدن، واحتلوا مناطق الخليج العربى، كما استطاعوا بمساعدة الأحباش دخول البحر الأحمر، كما استطاع العثمانيون دحر الفرس الذين اتخذهم البرتغاليون مطية لهم.

وكما انتصر المماليك فى معارك كثيرة برية وبحرية كان أشهرها (عين جالوت ٦٥٨هـ)، كذلك فإن العثمانيين قد واجهوا الزحف الصليبى الذى كاد يدخل فى أعماق الغرب والشرق الإسلامى، بعد إسقاطه لغرناطة سنة (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م)، وقد زحف الصليبيون فعلاً على تونس والجزائر خلال القرنين العاشر والحادى عشر للهجرة، ولم يوقف هذا الزحف إلا ظهور القوة العثمانية.

ومن المعروف أن وجود الصليبيين قد فرض على الدولة العثمانية أن تكون فى حالة استعداد حربى دائم... وحسبنا أن نذكر هنا بعض هذه الحروب؛ حتى لا يتعجل غير الموضوعيين فى إصدار الأحكام الظالمة على هذه الدولة.

بالإضافة إلى سهرهم الدائم على الشواطئ الإسلامية فى البحر الأبيض والأحمر والمحيط الأطلسى - وهو جهد استمر كثيراً - فقد واجه العثمانيون خلال وجودهم فى القرن التاسع عشر الميلادى وحده (الثالث عشر الهجرى) حملة نابليون بونابرت على مصر، وحملته على الشام، وحرب الصرب (١٨٠٤ - ١٨١٧م)، والحرب مع روسية (١٨٠٦ - ١٨١٢م)، وثورة اليونان (١٨١٢، ١٨٢٩م)، ومعركة نافارين البحرية؛ التى اتحدت فيها إنجلترا وفرنسا وروسيا

(١) بسام العسلى: الفاتح القائد، ص: ١١-١٢، دار النفائس، ط (١٤٠٦هـ).

بروح صليبية (١٨٢٧م) ـ ضد الدولة العثمانية، ثم احتلال الجزائر (١٨٣٠م)، وحملة إبراهيم باشا على الشام، بتشجيع من القوى الصليبية الفرنسية، ثم احتلال بريطانيا لعدن (١٨٣٩م)، وحرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦م)، وحرب الجبل الأسود (١٨٦٢م)، وحرب الصرب الثانية (١٨٨١م)، والحرب التركية الروسية (١٨٧٨م)، واحتلال فرنسا لتونس (١٨٨١م) وإنجلترا لمصر (١٨٨٢م)، والحرب اليونانية (١٨٩٧م)، واحتلال إيطاليا لليبيا (١٩١١م)، ثم حرب البلقان (١٩١٢م)[١].

وهكذا ـ من خلال نموذج الحروب التى خاضتها الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ـ نستدل على نوعية العلاقة العثمانية الأوروبية، وأسلوب الصراع؛ الذى كان دائم الوجود بين الدولة العثمانية، وبين أوروبا التى لم تنس أن دولة آل عثمان هى التى أوقفت زحف الصليبيين على العالم الإسلامى بعد إسقاطهم الأندلس!!

لقد كان المجتمع الإسلامى فى العهد العثمانى مجتمعًا إسلاميًا جهاديًا، شأنه شأن المجتمع الإسلامى فى العصر المملوكى، وقد تفوق إسلاميًا وكاد يسيطر على أوروبا؛ لولا ظهور الصفويين الشيعة؛ الذين حركتهم أوروبا الصليبية، فاشتبكوا مع العثمانيين وأوقفوهم، وبددوا طاقتهم فى حروب داخلية!!

وكما خضع المماليك لعلماء الشريعة، وأطلقوا أيديهم، وقبلوا أن يحكم عليهم سلطان العلماء (العز بن عبد السلام) بغرامات وتضحيات كثيرة، كذلك كان العثمانيون يخضعون لعلماء الإسلام والشريعة، ممثلة فى المفتين والقضاة والمحتسبين.

وكان المسلمون الخاضعون للدولة العثمانية ـ كما يقول العلامة الدكتور عمر فروخ ـ رحمه الله ـ «لا يشكون شيئًا يحملهم على النقمة؛ فإن الدولة العثمانية كانت دولة مسلمة . . . وإذا كانت الدولة العثمانية قد مرت فى أواخر أيامها

---

(١) عمر فروخ: تجديد التاريخ فى تعليله وتدوينه، دار الباحث بيروت، ص: ٢٨٠، ٢٨١، بتصرف.

بأحوال قاسية؛ فإن تلك الأحوال كانت خارجة على سيطرة الدولة العثمانية، وكانت قسوتها عامة فى الترك والعرب؛ وفى المسلمين وغير المسلمين، ثم إن المسلمين كانوا يتحملون هذه الأحوال القاسية؛ لأنهم (أو لأن أسلافهم) كانوا قد تمتعوا بالأمجاد التى كانت للدولة العثمانية فى تاريخها الطويل، ثم إن الدولة ليست فى المغانم المادية فحسب؛ بل الدولة جو روحى أيضًا يعيش فيه الفرد، وتعيش فيه الجماعة على رضا واطمئنان فى حالة الأمن، وعلى أمل بالرضا والاطمئنان المقبلين فى حالة البأس والشدة[1].

وقد عاش النصارى كذلك حياة طيبة تحت ظل الشريعة والحكم العثمانى، وما شكوا شيئًا فى الدولة لا فى أيام الرخاء ولا فى أيام الشدة؛ ففى أيام الرخاء كانوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق، ثم يزيدون فى أحيان كثيرة فى الامتيازات على المسلمين، ولقد كان النصارى واليهود فى الإمبراطورية العثمانية ملوك الاقتصاد والتجارة، وكان على المسلم أن يقوم بالخدمة العسكرية يقضى فيها السنين الطوال، وربما مات فى حملة من الحملات على اليمن أو فى معركة من المعارك مع الروس، فإذا أراد المسلم أن يعفى من الخدمة، فكان عليه أن يدفع البدل العسكرى (خمسين ليرة عثمانية ذهبًا) مرة أو مرتين أو أكثر، يقضى جانبًا كبيرًا من العمر فى تحصيله وجمعه، فيمنعه ذلك كثيرًا مما يريد من العلم والزواج، والعمل المنتج، أما غير المسلم فكان معفيًا من الخدمة العسكرية[2] - لأسباب كثيرة أيضًا - !!

ولأن الدولة العثمانية كانت - كما ذكرنا - دولة جهاد؛ فقد كان من طبيعة الأشياء أن تكون التنظيمات قائمة فى الدولة على مضمون الجهاد فى سبيل الله[3]. ولم يكن غريبًا أن تكون الصفة الملازمة لاسم السلطان العثمانى هى صفة (الغازى)[4] . . . وكانت الشريعة تحكم مجتمعًا جادًا لم تتفش فيه صور التحلل والابتذال والانحلال الأخلاقى؛ التى عرفت فى بعض المجتمعات.

---

(١) عمر فروخ: مرجع سابق، ص: ٢٨٢.
(٢) المرجع السابق.
(٣) بسام العسلى: سليمان القانونى، ص: ٨، دار النفائس - بيروت، ط/ ١، (١٤٠٦هـ).
(٤) المرجع السابق، ص: ٧.

لقد كانت أوروبا النصرانية بدولها المختلفة تقف فى وجه الدولة العثمانية المسلمة، وتحرض على إخراجها من أوروبا الشرقية، واقتطاع أجزائها، وإذا كانت دول أوروبا تختلف فيما بينها، ويتناقض بعضها مع بعض؛ فى سبيل امتداد نفوذها، واقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية، وأخذها الخيرات والأسلاب؛ إلا أنها كانت تنسى كل خلافاتها وتتفق فى وقوفها فى وجه العثمانيين [1].

وقد حاول السلطان العظيم (عبد الحميد) فى مستهل القرن العشرين للميلاد (١٢٩٣/ ١٣٢٦هـ) أن يقوم بعدد كبير من الإصلاحات، ورفع شعار (يا مسلمى العالم اتحدوا)، وأقام سكة حديد الحجاز، وحاول تحريك الأمة علميًا، وجمع العلماء حوله . . . لولا أن القوى العالمية وقفت ضده .

ومع ذلك كله ، فثمة ملاحظة يجب أن تؤخذ فى الاعتبار عند تقويم العثمانيين، بالإضافة إلى الملاحظة الخاصة بطبيعتهم العسكرية؛ نتيجة ظهورهم فى عصور هجوم أوروبى على العالم الإسلامى، بعد سقوط الأندلس، واضطرارهم للتصدى للحروب الصليبية، والدفاع عن العالم الإسلامى . . . هذه الملاحظة (الجديدة) هى أن العثمانيين وإن كانوا قد نجحوا نجاحًا رائعًا فى رفع راية الإسلام عالية فى الدنيا، وألقوا مهابته فى نفوس العالم؛ بهزائمهم لأوروبا مرارًا لثلاثة قرون منذ قيام دولتهم؛ إلا أنهم كانوا هم كذلك يسيرون فى طريق الانحطاط كعامة الأمم المسلمة فى هذا الزمان، بينما الأمم الأوروبية التى تقابل الأمة التركية فى الميدان، والتى عاصرتهم؛ كانت تسير فى طريق الرقى المادى والتقدم الفكرى، وفى القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى) انقلبت الأحوال، فقد بلغ من إحكام التنظيم العسكرى، وتضاعف القوة المادية والمعنوية عند أمم الإفرنج أنها هزمت الأتراك المتخلفين هزيمة بينة لأول مرة فى معركة سينت جوثرد [2].

---

(١) إسماعيل ياغى، ومحمود شاكر : مرجع سابق، ص: ١٥٣ .

(٢) أبو الأعلى المودودى: نحن والحضارة الغربية، ص: ١١٠، ط مؤسسة الرسالة - بيروت ، ويطلق على المعركة (سان جوتار) فى الترجمة العربية .

هكذا كان الموقعان مختلفين، والظرفان مختلفين، ومع ذلك قام العثمانيون بدورهم على خير ما استطاعوا، وقد قدموا صفحة استمرت خمسة قرون دفاعًا عن الإسلام وشريعته وحضارته . . . ولو لم يكن العثمانيون لاستطاعت أوروبا احتلال العالم الإسلامي في وقت مبكر، ولكان مصير كثير من الدول الإسلامية لا يعلمه إلا الله . . . وما فعلته فرنسا في الجزائر خلال مدة تزيد على مائة وثلاثين عامًا دليل على نوعية ذلك المصير الذي كان ينتظر المسلمين، لولا أن قيض الله العثمانيين جزاهم الله خيراً .

* * *